Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi

90043

تاريخ المعتزلة

فكرهم وعقائدهم

دراسة فى إسهامات المعتزلة
فى الأدب العربى

دكتور فالح الربيعى

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم
اسم المؤلف : دكتور فالح الربيعى
17 x 24 سم . 160 ص .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2000/17299
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

Tareekh AL Mo'atzela
Dr. Faleh Al - Robaie
17 x 24 cm.160 p.
ISBN: 977-339-025-X

الطبعة الأولى
1421 هـ/ 2001 م

كافة حقوق النشر والطبع محفوظة للناشر

الدار الثقافية للنشر – القاهرة
ص.ب 134 بانوراما أكتوبر 11811 – تليفاكس 4027157 – 4172769
Email: sales @thakafia.com

إهـــــداء

أقدّم هذا الجهد المتواضع إلى روح الوالد المرحوم الذى علّمنى دومًا أن للحياة هدفًا ورسالة يجب على الإنسان أن يسعى ويكرّس حياته من أجل تحقيقهما ، والذى أدين له ولدعواته الخالصة بهذه المرحلة العلميّة التى وفّقنى الله تعالى للوصول إليها .

فالح الربيعى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد فقد كان دافعى الأول لتأليف هذا الكتاب هو أن موضوع أدب المعتزلة، وإسهاماتهم فى الأدب العربى، وانعكاسات وآثار التفكير الاعتزالى على مؤلفاتهم ومصنفاتهم وآثارهم، يعد من المواضيع التى تشكل فراغًا كبيرا فى الدراسات الأدبية المتعلقة بالأدب العربى القديم رغم أن الكثير من المعتزلة عرفوا كأدباء كبار ومعروفين فى تاريخ الأدب العربى، ورغم أنهم لعبوا دورًا كبيرًا فى إغناء الدراسات الأدبية وخصوصا الدراسات المتعلقة بالعلوم البلاغية، وأسرار الإعجاز القرآنى، وفى تطوير النثر العربى شكلا ومضمونًا، وإدخال موضوعات وأغراض جديدة عليه، وإغنائه من ناحية الأسلوب والمحتوى إلى آخر ذلك من خدمات جليلة دان لهم بها الأدب العربى بفضل طريقة تفكيرهم، والثقافة الخاصة التى تميزوا بها والقائمة فى الأساس على التفكير العقلى والمنطقى والفلسفى، صحيح أن أدباء المعتزلة حظوا - كأفراد - بنصيب وافر من الاهتمام الأدبى، إلا أن دراسة آثارهم ونتاجاتهم جاءت بمعزل عن بيان تأثيرات مذهبهم الاعتزالى على هذه الآثار والنتاجات، وتسليط الأضواء على دورهم - كأشخاص اعتنقوا مذهب الاعتزال - فى إغناء وتطوير الأدب العربى، وترك لمساتهم، وبصماتهم الواضحة عليه، أى أن الموضوع لم يطرح ولم يعالج- على حد علمنا واطلاعنا- من وجهة النظر هذه ولذلك فقد جاء كتابنا هذا كمحاولة لسد هذا الفراغ، وإعطاء المعتزلة حقهم من الدراسة الأدبية لمؤلفاتهم ومصنفاتهم وما أثر عنهم من روايات، وأخبار، وأقوال تناثرت فى مصادر وكتب الأدب والتاريخ العربى.

ونظرًا إلى أنه من الثابت تاريخيًا أن بداية ظهور المعتزلة كمذهب مستقل له أصوله ومبادؤه وأسسه الخاصة به كانت فى أوائل القرن الثانى الهجرى، فقد امتدت الفترة الزمنية

التى حلّلتُ ودرستُ فيها أدب المعتزلة (من ناحية الأعلام والشخصيات) اعتبارًا من هذه البداية وحتى القرن السابع الهجرى رغم أن الباحثين والمؤرخين يعتبرون نهاية القرن الرابع الهجرى الفترة التى أفل فيها نجم المعتزلة، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك، إلا أننا وبعد أن رأينا أن وجود المعتزلة على صعيد العقيدة، والأدب، استمر - وإن كان على نطاق ضعيف ومحدود - بعد نهاية القرن المذكور وامتد حتى مرحلة متأخرة من العصر العباسى (القرن السابع الهجرى) متمثلا فى ظهور بعض من أعلامهم البارزين على صعيد المذهب، والأدب كالزمخشرى، وابن أبى الحديد، والجبائى والقاضى عبد الجبار وغيرهم ممن لعبوا دورًا كبيرًا فى الأدب العربى، ومتمثلا أيضا فى بقاء مذهبهم مزدهرا فى شرق العراق، وإيران، وبلاد ما وراء النهر حتى بعد نكبتهم الثانية على يد أهل السنة بعد موت عضدهم، ودعامتهم الكبرى المتمثلة فى الصاحب ابن عباد وزوال الدولة البويهية فى بغداد، فقد رأينا أن من المناسب لموضوع هذا الكتاب أن نغطى فى دراستنا نتاجات وشخصيات المعتزلة بعد القرن الرابع الهجرى وحتى الفترة التى سبقت بقليل سقوط بغداد سنة (٦٧٨هـ - ١٢٥٨م).

إلى هذه العوامل والأسباب وغيرها، فقد رأينا أن من الأفضل والأنسب أن نتجاوز بدراستنا لأدب المعتزلة حدود الفترة الزمنية التى دأب المؤرخون والباحثون على اعتبارها الفترة التى يجب أن تتوقف عندها الدراسات المتعلقة بنشاط المعتزلة، لنوغل إلى ما بعدها من عصور امتدت إلى ما يقرب من سقوط بغداد، حيث شهدت هذه العصور ظهور بعض الشخصيات المعتزلية الكبيرة التى لم يقل دورها، وإسهاماتها فى الأدب العربى عن الشخصيات التى ظهرت قبل تلك الفترة إن لم تتفوق عليها فى بعض الحالات كما نلاحظ ذلك فيما يتعلق بالزمخشرى صاحب أعظم وأغنى تفسير أدبى وبلاغى للقرآن الكريم، وابن أبى الحديد الكاتب المُفلق والشاعر المُجيد، ومؤلف أفضل شروح نهج البلاغة.

وبطبيعة الحال فإن اختيار موضوع كهذا يتميز بكونه جديدًا وبكرًا، تكتنفه الكثير من المصاعب والمشقات، فمن أولى المشاكل والصعوبات التى واجهتنى، عدم وجود كتب مستقلة تناولت المعتزلة من ناحية دراسة نتاجاتهم الأدبية وبيان آثار التفكير الاعتزالى فيها، وتقصى إسهاماتهم ودورهم فى الأدب العربى، ولذلك فقد اضطررت والحالة هذه إلى أن أعتمد على نفسى فى جمع واستقراء واستقصاء آثارهم، ونتاجاتهم الأدبية من الكتب والمصادر التاريخية والأدبية ا لتى اهتمت بالترجمة لهم وذكر أخبارهم ورواياتهم وأقوالهم

والتى ذكرتها فى قائمة مستقلة فى نهاية الكتاب عدا الكتب الأدبية المستقلة التى وصلتنا من أدبائهم، ومن ثم تحليل تلك الآثار والنتاجات وإخضاعها للبحث والدراسة على أساس الهدف الذى توخيناه من تأليف هذه الرسالة.

ومما زاد هذه المشكلة تعقيدا وتشابكا أننا اضطررنا فى معظم الأحيان إلى الاعتماد على المصادر والكتب التى ذكرت أخبارهم فيها من قبل غيرهم، ذلك لأن من الثابت تاريخيًا أن القسم الأكبر من مؤلفات ومصنفات المعتزلة (ومن ضمنها المؤلفات والمصنفات الأدبية) قد جار عليها الزمن فضاعت من جملة ما ضاع من تراثنا الأدبى والفكرى، وهذه المشكلة تتأكد لنا أكثر بالنسبة إلى المعتزلة خصوصا إذا علمنا أنهم تعرضوا لنكبات وانتكاسات كثيرة من قبل أعدائهم وخصوصا أهل السنة الذين يعتبرون الأعداء والألداء للمعتزلة، والذين - على الأرجح - لم يألوا جهدا فى حرق مؤلفات المعتزلة وكتبهم وإتلافها فى الفترات التى ضعف فيها النفوذ السياسى للمعتزلة مقابل سيادة أهل السنة على صعيد السلطة والنفوذ السياسى، كما نلاحظ ذلك فى عصر المتوكل الذى نكب المعتزلة وأطلق يد السنة فيهم، وكذلك بعد سقوط الدولة البويهية فى بغداد.

وعلى أية حال فإن من المؤكد أن المعتزلة تركوا لنا تراثا فكريا، وعقيديا، وأدبيا ضخما خلال فترة حياتهم الطويلة (ثلاثة قرون على أقل التقادير) تحدثنا عنه الكتب والمصادر التى أرخت لهم (مثل الفهرست لابن النديم)[1] من خلال ذكر أسماء الكتب والمصنفات التى ألفوها، ومن خلال الإشارة إلى أن العالم، أو الأديب، أو الشاعر الفلانى منهم له مؤلفات غزيرة فى هذا الفرع من المعرفة أو ذاك، إلا أننا - للأسف - نسمع بهذه المؤلفات ولا نراها، للسبب السابق الذى ذكرناه، دون أن ننفى أن هناك احتمالا بوجود بعض النسخ الخطية لهم متفرقة فى البلدان والمكتبات المختلفة لم تنلها لحد الآن يد العناية، والتحقيق التى توصلها إلى مرحلة النشر والطبع لكى يتسنى للباحثين الاستفادة منها فى تسليط الأضواء على هذا الجانب الهام من الفكر الإسلامى.

ومن بين الصعوبات الأخرى التى واجهتها، هى أن معظم الكتب التى تحدثت عن المعتزلة لم تبد كبير اهتمام بدراسة الجانب الأدبى من تراثهم، بل ركزت اهتمامها على

---

(١) (انظر: إرجاعاتنا لهذا الكتاب فى الفصل السادس من الباب الأول).

دراستهم من الناحية العقيدية، والمذهبية، والفكرية، ذلك لأن المعتزلة حظوا دائما من قبل الباحثين المسلمين، والمستشرقين، بالدراسة باعتبارهم يمثلون مدرسة فكرية وفلسفية وكلامية، كان لها الأثر الأكبر فى نقل الثقافة اليونانية إلى الحضارة الإسلامية، والدفاع عن الإسلام باستخدام الأساليب والقواعد العلمية والمنطقية للجدل والمناظرة، وإغناء التراث الفلسفى والعقلى للمسلمين، وهذا هو الجانب الذى يلفت النظر أكثر من غيره فى نشاط المعتزلة، ولذلك فقد تركزت الدراسات على إشباع هذا الجانب دون الاهتمام بالجانب الأدبى لهم والذى لم يخضع للدراسة والتحقيق بشكل مستقل، بل طُرِحَ ممزوجا بالأدب العربى ككل.

وعلى أية حال، فإن موضوع دور المعتزلة فى إغناء الأدب العربى، وتوسيع موضوعاته وأغراضه، وتقصى واستقراء آثار الاعتزال فيه يعد - كما قلنا - من جملة المواضيع التى مازال يكتنفها الغموض والإبهام، والتى هى بحاجة إلى إشباع أكثر من ناحية جمع المعلومات الكافية حول هذا الموضوع، وإخراجها من حالة التشتت والتبعثر فى بطون المصادر التاريخية والأدبية المختلفة، ومن ثم التوفر على دراستها وتحليلها لكى يتسنى لنا من خلال ذلك إلقاء المزيد النثرى وبالأخص العوامل الفكرية والعقيدية.

وتتأكد لنا أهمية هذا الموضوع أكثر عندما نعلم أن تلك العوامل كان لها القسط الأكبر من التأثير على هذا الأدب شكلا ومضمونا اعتبارا من العصر الأموى وحتى نهاية العصر العباسى، ففى هذه الفترة اتسع نطاق الفتوح الإسلامية، واضطر العرب إلى أن يتعاملوا مع الكثير من أصحاب الحضارات، والثقافات، والديانات والمعتقدات الأخرى، ومما لاشك فيه أن التعامل الفكرى والحضارى والعقيدى يشكل الجزء الأكبر من مظاهر التأثير والتأثر، ومن المسلم به - أيضًا- أن الأدب شعرا كان أم نثرًا كان أكثر مجالات حياة المسلمين تأثرا، واستجابة لظاهرة التفاعل تلك، فكانت النتيجة أن مارست المؤثرات الحضارية والثقافية الأجنبية تأثيرها على الجانب الأدبى من الحضارة الإسلامية وطبعته فى بعض الجوانب بطابعها، فطرأت على أثر ذلك تغيرات وتطورات على الأدب العربى من الناحيتين الشكلية والمضمونية تركت آثارها وبصماتها الواضحة على هذا الأدب، وجعلته يدخل مجالات جديدة، ويتأطر بأطر أخرى بما يتناسب ومتطلبات الحياة الجديدة التى دخلها العرب.

وكانت الحضارة اليونانية من بين تلك الحضارات التى امتزجت وتفاعلت مع الحضارة الإسلامية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت صاحبة القسط الأوفى والأكبر من هذا

الامتزاج والتفاعل وخصوصا فى الجانب الفكرى، ونقصد بالجانب الفكرى هنا، أساليب وطرق التفكير والبحث العلمى والتوصل إلى النتائج من خلال الاستناد إلى المقدمات وبالطبع فإننا لا نقصد أن هذه الأساليب والطرق كانت منعدمة الوجود لدى المسلمين، بل نريد أن نقرر حقيقة أن الحضارة الإسلامية مدينة إلى الحضارة اليونانية فى ظهور بعض العلوم بمفهومها العلمى الدقيق، ونقصد بالتحديد، الفلسفة، والمنطق، والكلام، والأساليب العلمية للجدل والبحث دون أن ننفى اتباع مصادرنا الإسلامية لبعض من تلك القواعد والأساليب، كما نلاحظ ذلك فى القرآن الكريم، والأحاديث والسيرة النبوية الشريفة، إذ أن المواقف التى مرت بها الدعوة الإسلامية فى بداية أمرها كانت تقتضى مواجهة أعدائها بما يحملونه من معتقدات وقناعات وأدلة وبراهين، ولذلك نرى فى القرآن الكريم الكثير من الآيات التى كانت توجه خطابها إلى أولئك الأعداء من خلال اعتماد مبدأ المناقشة والجدال لإثبات حقانية أطروحاتها المختلفة، ونفس الشىء يمكن أن يقال عن الأحاديث النبوية الشريفة، وسيرة النبى ﷺ ومواقفه المختلفة مع أهل الكتاب والمشركين.

ومع ذلك فإن تلك القواعد والأساليب ظلت على حالتها البدائية البسيطة البعيدة عن الإطار العلمى، والمنهجية المستقلة حتى بدأت الحضارة الإسلامية تتفاعل وتتلاقح مع الحضارات الأخرى المحيطة بها فى جانبها الإيجابى، والعلمى وحينئذ تعرف المسلمون على أساليب وقواعد جديدة لم يكن لهم عهد بها من قبل، أو كان لهم عهد بها ولكن بشكل غير منهجى.

ونحن نريد أن نقرر فى هذا المضمار أن المتكلمين - وبالتحديد المعتزلة - كانوا السباقين فى مجال تعريف المسلمين بتلك الأساليب والقواعد، فمثلوا فى هذا المجال حلقة الوصل بين الحضارتين الإسلامية واليونانية من خلال دراستهم، وتمثلهم الدقيق والعميق لمعطيات اليونانيين فى مجال الفلسفة والمنطق، ثم توظيفهم لهذه المعطيات فى إغناء الفكر الإسلامى فى جانبه العقيدى، والدفاع عنه إزاء المعتقدات، والأديان، والمذاهب الأخرى التى أصبح المسلمون يواجهونها بعد اتساع حركة الفتوح الإسلامية خصوصا إذا علمنا أن هذه المعتقدات والأديان كانت تستخدم بشكل رئيس وعلى نطاق واسع ما زخرت به حضارتها من أساليب وقواعد متطورة فى النقاش والجدال.

ومما لا شك فيه أن النشاط الذى مارسه المتكلمون عموما، والمعتزلة بشكل خاص كان على صلة وثيقة بالأدب إلى درجة أن مؤرخى ونقاد الأدب قرروا أن علوم البلاغة نشأت